أسد بن الفرات الفقيه القائد

د. لمياء عزالدين مصطفى الصباغ(*)

المقدمة

يعد أسد بن الفرات واحداً من علماء القرن الثاني الهجري، رحل والتقى جُلـّة شيوخ عصره المشاهير في مصر والحجاز والعراق حتى اصبح بحق رائداً من رواد المذهبين المالكي والحنفي وناشريه في المغرب.

تتناول دراسة ابن الفرات وجهين مختلفين لشخصيته:

يتمثل الأول في كونه شيخا من شيوخ عصره رفد الحركة العلمية بالمغرب بالكثير من العطاء.

ويتناول الثاني في شخصيته القائد العسكري الذي حمل مسؤولية فتح جزيرة صقلية.

وقد تناول البحث:

نشأته وشيوخه ورحلته إلى المشرق ثم عودته إلى القيروان، وتصدره للتدريس وتوليته القضاء، ومن ثم توليته قيادة الحملة لفتح جزيرة صقلية.

(*) أستاذ مساعد – قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل

اسمه ونسبه ومنشأته

هو أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم بن قيس، يكنى أبا عبدالله[1].

ولد في مدينة حران من أرض الجزيرة سنة 142هـ / 729م وحمله والده طفلا إلى المغرب العربي إذ كان من ضمن جند حملة محمد بن الأشعث التي دخلت المغرب في السنة 144هـ / 761م[2] إبان عصر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[3] لإقرار الأمور في المغرب العربي بعد اضطراب أحواله نتيجة من نتائج سيطرة الخوارج على أقسام كبيرة من أراضيه.

وبعد إقرار الأمن في المغرب استقر والده في مدينة القيروان التي نشأ أسد فيها وبدأ تعليمه القراءة والكتابة[4]، والظاهر أن والده في مدينة القيروان لم يطل كثيرا حيث رحل به إلى تونس وكان عمره ينيف على السبع سنوات قليلا، وفيها

(1) أبو العرب، طبقات، ص163؛ الخشبي، طبقات، ص235؛ المالكي، رياض النفوس، ج1/254-2263؛ الشيرازي؛ طبقات الفقهاء، ص155؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3/291؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، ج2/380-381. الدباغ، معالم الأعيان، ج3/2؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1/225؛ اليافعي، مرآه الجنان، ج2/56؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/97؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9/6؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، ج/306، النباهي، تاريخ قضاه الأندلس (المرقبة العليا) ص54.

(2) أبو العرب، طبقات، ص163؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ح3/291.

(3) كتب الخليفة أبو جعفر المنصور إلى ابن الأشعث ان يسير بنفسه، فخرج إلى المغرب في أربعين ألف عليها 28 قائدا. ينظر ابن عذاري، البيان المغرب، ح1/72.

(4) أبو العرب، طبقات، ص163؛ المالكي، رياض النفوس، ج1/254؛ الشيرازي، طلقات الفقهاء، ص54؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج2/5.

أقام نحوا من تسع سنين أو تزيد[5]، وخلال هذه المدة تردد أسد على مشاهير شيوخ تونس وكان في مقدمتهم علي بن زياد التونسي[6] (ت 138هـ/799م) الذي يعد أول شيخ حمل عنه العلم واليه تردد[7]، ويؤثر عن أسد قوله: (إني لأدعو الله لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت منه العلم)[8] فلازمه سنينا حتى تخرج به في علوم الفقه وغيرها من العلوم التي كان يحفل بها مجال الشيخ علي بن زياد بتونس.

ولأسباب غير معروفة على وجه الدقة غادر أسد بن الفرات تونس إلى قرية مجردة[9] وعمره ثماني عشرة سنة ونزلها معلما للقرآن[10].

الرحلة إلى المشرق

لم يكتف أسد بن الفرات بما حمله عن شيوخ بلده فعزم على الرحلة إلى المشرق فهيأت له إمكانية ذلك سنة 172هـ/ 788م وعمره ثلاثون سنة[11].

(5) أبو العرب، طبقات، ص163؛ المالكي، رياض النفوس، ج254/1؛الدباغ، معالم الإيمان، ج5/2.

(6) أبو العرب، طبقات، ص220؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج80/3، وللمزيد ابن زياد، مؤطا مالك قطعة منه برواية ابن زياد تقديم وتحقيق الشيخ محمد الشاذلي (بيروت: 1983).

(7) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ح80/3و 291؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج5/2؟ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ح225/10.

(8) أبو العرب، طبقات، ص220.

(9) بالقرب من تونس على نحو 10 أميال نهر كبير يسمى مجردة وهو على الطريق إلى المغرب. مجهول، الاستبصار، ص121.

(10) أبو العرب، طبقات، ص163؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 291/3.

(11) أبو العرب، طبقات، ص220؛ الشيرازي، طبقات، ص155؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج292/3.

والظاهر أنه قصد في رحلته هذه، التي تمت عبر مصر، الحجاز ولقاء الأمام مالك في المدينة لأن المصادر التاريخية لا تشير إلى أخذ أسد من شيوخ مصر وانما كان ذلك عند عودته إلى بلاده[12] كما سنرى وهو بذلك أراد الوصول إلى الأصل والنبع لما يبغي وهو الأمام مالك.

وكان الأمام مالك يعد من أشهر شيوخ عصره في الحجاز[13] وما من راحل من أهل المغرب الأولى عن الأمام مالك نصيب من العلم فإليه كانت رحلته وطلبه، فسمع منه، وجالسه وشهد حلقته وكتب وتحدث إليه[14].

وكان تلامذة مالك يهابونه فلا يسألون الأسئلة ومنهم ابن القاسم حيث يشير إلى ذلك القاضي عياض بقوله: (وكان ابن القاسم وغيره يجعلونني أسال مالكا، فإذا أجابني قالوا لي قل له، (فإن كان كذا وكذا)[15] .... فيجيبه).

ولا شك أن حب التلميذ التعلم جعله يلح في السؤال فألح أسد مرة في الأسئلة والمناقشة، وكان مالك يكره السؤال، فضاق ذرعا وقال له يوما (هذه سلسلة بنت سليسلة) ان كان كذا كان كذا، ان أردت هذا فعليك بالعراق)[16].

وعلى كل حال فقد استنتج ابن الفرات بأن طريقة أهل الحديث في الحجاز وعلى رأسهم الأمام مالك بن انس كانت قائمة على استنباط الأحكام مباشرة من

(12) المالكي، رياض النفوس،ج261/1؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج296/3.

(13) ابن عبدالبر، الانتقاء، ص9 وما بعدها؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ح207/1-212؛ السيوطي، طبقات، ص89.

(14) الملكي، رياض النفوس، ج256/1؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج292/3؛ الدباغ، معالم، ج5/2.

(15) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج292/3.

(16) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج292/3؛الدباغ، معالم الإيمان، ج5/2.

القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أو منهما معاً، ولم يلتزموا بقول عالم أو إمام[17].

وقبل أن يغادر ابن الفرات ارض الحجاز – المدينة المنورة – ودعه الأمام مالك وقال له: (أوصيك بتقوى الله والقرآن ونشر هذا العلم). وفي نص آخر (أوصيك بتقوى الله العظيم والقرآن ومناصفة هذه الأمة خيرا)[18].

وهكذا ختم رحلته إلى الحجاز وحمل الموطأ معه إلى بلاد المغرب[19] وما ان استكمل بغيته في الحجاز، رحل إلى العراق[20]، وهناك لقي أصحاب الأمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت التميمي الكوفي المتوفى سنة 150هـ/768م[21] فلقي منهم:

يعقوب بن إبراهيم الأنصاري المكنى بأبي يوسف القاضي المتوفى سنة 182هـ/798م[22] ببغداد.

وكان من فقهاء الحنفية المشهورين في العراق، صاحب حديث وسنة، وهو أول من دعي بقاضي القضاة، تلمذ لأبي حنيفة النعمان، من مصنفاته: آمال في

(17) ابن خلدون، المقدمة، ص446.

(18) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج292/3 و 293.

(19) المالكي، رياض النفوس، ج256/1.

(20) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج292/3.

(21) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص86، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج323/13-324؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج405/5-409؛ الذهبي ـ تذكرة الحفاظ، ج168/1-169.

(22) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص134؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ، ج242/14-243؛ ابن أبي الوفاء، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ص220-222؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص121-122

الفقه، وكتاب الخراج، وأدب أنس، وكتاب الزكاة والصلاة والصوم وغيرها[23].
اجتمع به أسد بن الفرات وأخذ عنه[24].

وهشيم بن بشير بن القاسم الواسطي المكنى بأبي معاوية المتوفى سنة 183هـ/799م[25].

وكان نزيل بغداد من الشيوخ المعروفين، وكان ثقةً حافظاً كثير الحديث، عنده عشرون آلف حديث، وله من المؤلفات: تفسير القرآن، وكتاب السنن في الحديث، لقيه ابن الفرات وأخذ عنه[26].

ومحمد بن الحسن السيباني المكنى بأبي عبدالله المتوفى سنة 187هـ/802م[27] وكان من فقهاء الحنفية، قال الشيرازي عنه (حضر مجلس أبي حنيفة سنتين ثم تفقه على أبي يوسف، وصنف الكتب الكثيرة، ونشر علم أبي حنيفة)[28] .

وحضر أسد مجالس محمد بن الحسن الشيباني لأنه قد أسدى له الرعاية والعناية المادية والمعنوية، ولم يكتفِ أسد بذلك بل طلب من شيخه أبي عبدالله درسا خاصا فقال له: (أنا غريب والسماع منك قليل) قال: اسمع مع العراقيين

(23) البغدادي، هدية العارفين، م 536/1.
(24) أبو العرب، طبقات، ص163؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج292/3.
(25) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج149/2؛ الداؤودي، طبقات المفسرين، ج392/2.
(26) أبو العرب، طبقات، ص163؛ المالكي، رياض النفوس، ج254/1.
(27) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص135؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج172/2؛ ابن أبي الوفاء، الجواهر المضيئة، ص42.
(28) طبقات الفقهاء، ص135؛ وينظر ابن أبي الوفاء، الجواهر المضيئة، ص42.

بالنهـار، وجئنـي بالليـل وحـدك تبيـت معـي وأسـمعك) قـال أسـد: فكنـت أبيـت عنده، وكنت في بيت في سقيفة، وكان يسكن محمد بن الحسن العلو، فكان ينزل الي ويضع بين يديه قدحا فيه ماء ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ورآني نعست ملأ يده ماء ونضح به على وجهي فأنتبه، قال: ذلك دأبي ودأبَهُ حتى أتيت على ما أريد من السماع)[29] فهذا إن دَلَّ على شيء فإنما يدل على مدى الترابط الوثيق بين الشيخ والتلميذ أولا، ومن ثم الطموح العلمي الذي كان يملأ نفس أسد بن الفرات ويدفعه دائما إلى تلقي العلم، والمثول بين يدي شيخه والسماع منه.

وأسد بن عمرو بن عامر البجلي، المكنى بأبي المنذر المتوفى سنة 188هـ/803م[30].

وكان من فقهاء الحنفية، وهو أول من كتب كُتب أبي حنيفة، وولـّيَ قضاء واسط ثم بغداد. صحبه أسد بن الفرات واخذ عنه[31].

ومن الشيوخ الذين لقيهم في بغداد وسمع وكتب عنهم:

يحيى بن أبي زائدة، والمسيب وأبي شريك، وأبو بكر بن عياش وآخرون غير هؤلاء[32].

(29) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3/293-294.

(30) ابن سعد، طبقات، ج7/72-74؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، ج1/99؛ ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج1/284.

(31) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3/291.

(32) الملكي، رياض النفوس، ج1/257؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، 3/291؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج2/5.

وبهذا يكون أسد بن الفرات قد ألـَمَّ بالمذهبين السائدين في العالم الإسلامي آنذاك، مذهب أهل الحديث، ومذهب أهل الرأي[33].

وعندما أنهى دراسته هذه استعد للرحيل إلى مصر بطريق عودته إلى المغرب[34]

رحلة ابن الفرات إلى مصر

وفي مصر حَلَّ أسد بن الفرات بين عدد من شيوخها وأفاد منهم، كعبدالله بن عبدالحكم (ت 191هـ/806م)[35]، وعبدالله بن وهب (ت197هـ/812م)[36] وأشهب بن عبدالعزيز (ت 204هـ/819م)[37] وغيرهم من مشاهير تلامذة الإمام مالك، أما عبدالرحمن بن القاسم (ت 191هـ/806م)[38] فهو من أَجَلِّ شيوخه المصريين وأكثرهم صلة به، وكان شيخ الديار المصرية حمل العلم عن الإمام مالك، وصحبه كما يقال عشرين سنة وحمل عنه الكثير من العلم، وهو صاحب المدونة في المذهب.

قال الشيرازي: (لما قدم أسد مصر أتى إلى ابن وهب، وقال هذه كتب أبي حنيفة، وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك فتورع ابن وهب وأبي، فذهب إلى

(33) المالكي، رياض النفوس، ج263/1؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج296/3.

(34) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج296/3.

(35) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج528/2-532؛ ابن مزحون، الديباج المذهب، ج419/1-421.

(36) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج221/2-522؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج204/1-206.

(37) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص150؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج470/2.

(38) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج244/3؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج35/1.

ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب فأجابه فيما حفظ عن مالك بقوله، وفيما شك قال: أخال وأحسب وأظن بهِ، ومنها قال فيه، سمعته يقول في مسألة كذا، وكذا ومسألتك مثله، ومنه قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك)[39]

وكان أسد يصل إلى ابن القاسم كل يوم حتى دون عنه ستين كتابا، وأسمى تلك الكتب بالأسدية، وعن أسد بن الفرات أخذ المصريون الأسدية وكتبوها عنه[40].

وهكذا فقد أُثِرَ عن ابن الفرات قوله في شيخه (يا معاشر الناس، إن كان مات مالك فهذا مالك – يعني ابن القاسم)[41]

وقد نتجت عن هذه الصلة الوثيقة بين ابن الفرات وشيخه ابن القاسم نسخه من المدونة في المذهب المالكي، الذي حمله عنه إلى القيروان، ونسب إليه، فَسُمِيَّ بالأسدية[42].

ومن طريف ما يذكر أن أسداً كان في مجلس شيخه محمد بن الحسن فسمع من يصيح الماء للسبيل، فقام أسد فشرب الماء وعاد إلى حلقة الدرس قال أسد: فقال لي محمد بن الحسن: (يا مغربي أتشرب ماء السبيل؟ فقلت (أصلحك الله وأنا ابن السبيل، ثم انصرفت، فلما كان الليل إذ أتاني إنسان فقرع الباب فخرجت إليه، فإذا بخادم محمد بن الحسن، فقلت مولاي يقرأ عليك السلام، ويقول لك، ما علمت انك ابن السبيل غير يومي هذا خذ هذه النفقة فاستعفي بها على حاجتك، ثم دفعت اليّ

(39) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج296/3.

(40) أبو العرب، طبقات، ص163؛ الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص54؛ المالكي. رياض النفوس، ج254/1.

(41) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج297/3.

(42) المالكي، رياض النفوس، ج255/1؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج297/3.

صرة ثقيلة، فقلت في نفسي هذه كلها دراهم؟ ففرحت بها، فلما دخلت منزلي فتحتها فإذا فيها ثمانون ديناراً)[43]

وإذا كان أسد بن الفرات قد صادف حظا في رحلته هذه ووجد من يعينه على طلب العلم، ويشد على يده فإن الكثير من الراحلين عانوا أضعاف ما عاناه ابن الفرات سواء من مخاطر في الطريق أم من جوع أو عوزٍ، وقد اكتمل فضل شيخه محمد بن الحسن عليه عندما سهل له أمر المثول أمام ولي العهد لشرح أحواله فدفع إليه صاحب الديوان (عشرة آلاف درهم، فأعلمت محمد بن الحسن فقال لي: ان عدت إلى القوم صرت لهم خادماً، وفيما أخذت عون لك)[44]

عودته إلى القيروان

عاد ابن الفرات إلى القيروان سنة 181هـ/797م بعد ان انتهت رحلته إلى المشرق، وبعد ان جمع بين المذهبين السائدين في العالم الإسلامي مثلما ذكرنا سابقا ليبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته.

وعند عودته اتخذ جامع القيروان مقاما لتدريس المذهب الحنفي والموطأ، وانعقدت له زعامة الحياة العلمية في المغرب. وكان كتابه الأسدية هو عمدة الفقهاء ومحور تدريسه في هذا الجامع فحفل مجلسه بالعلماء والمتعلمين سواء في ذلك اتباع مذهب مالك، كسحنون بن سعيد أم أصحاب المذهب العراقي، كابن المنهال،

(43) المالكي، رياض النفوس، ج1/257-258؛ وينظر القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج294/3.

(44) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج381/1.

ومعمر بن المنصور، وسليمان بن عمران، وبني قادم، وعمرو بن وهب وغيرهم[45].

وكان ابن الفرات يعرض في مجلسه مذهب أبي حنيفة وشرح أقوال العراقيين، فإذا فَرَغَ من ذلك بدأ بإيراد مذهب مالك وشرح أقوال المدنيين[46].

فهذا منهجٌ جديدٌ من مناهج الفقه الإسلامي يدخل المغرب العربي كونه دراسة مقارنة بين المذهبين، وبقي أسد يعرض له هكذا سنوات إلى ان رحل تلميذه سحنون بن سعيد في رحلته الثانية إلى المشرق، ودخل مصر والتقى شيخه عبدالرحمن بن القاسم، وعليه قرأ الأسدية[47]، التي كان أسد بن الفرات قد أخذها عنه وسمعها سحنون من أسد في الغرب. فصححها ابن القاسم وغير مابدا له فيها وبذلك أصبحت نسخة سحنون النسخة الأصلية[48]. ثم كتب ابن القاسم بذلك إلى ابن الفرات وطلب إليه في كتابه ان يرد مدونته إلى مدونة سحنون[49]. (فلما قدم سحنون بالكتب دفعه إلى أسد فلما قرأه أراد ان يفعل ما أمره به أمام جماعة من تلامذته فقالوا له: (لا تفعل فإنك تتضع عند الناس ان رددت كتبك إلى كتب سحنون ويسود بذلك عليك وترجع له تلميذا وانت قد أدركت مالكا وأخذت عنه، ثم دخلت الكوفة وأخذت عن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، فاترك هذا واحمل عن هؤلاء فقبل منهم كلامهم وفعل ما قالوا له ولم يقبل كتاب ابن القاسم في ذلك وتمسك بكتابه(الأسدية،

(45) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج302/1.

(46) المالكي، رياض النفوس، ج263/1؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج302/3.

(47) كانت رحلته في طلب العلم سنة 188هـ/804م واعتمد على ابن القاسم وبه تفقه، وعليه صحح الأسدية، وكان لا يفارقه في سماع العلم والبحث عنه. ينظر المالكي. رياض النفوس. ج348/1.

(48) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج298/3-299.

(49) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج299/3.

ونشر مذاهب أهل العراق وتمسك سحنون(بمدونته) التي قدم بها ونشرها وسمعها عليه أهل الغرب، وانتشر ذكرها في الآفاق وعول الناس عليها واعرضوا عن (الأسدية) وغلب عليها اسم سحنون[50].

توليته القضاء

يعد منصب القضاء من المناصب الشرعية الرفيعة في الدولة، فهو يخول صاحبه أمر الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع طبقا للأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة[51].

استقضى زيادة ابن الأغلب (211هـ-223هـ/816م-838م أسد بن الفرات سنة 203هـ/818م وعمره إذ ذاك واحد وستون عاما، وكان في قضائه شريكا لأبي محرز الكناني[52]، الذي كان رجلا معروفا بين الناس بالزهد والورع ومن الفقهاء المعدودين بمذهب أهل العراق من أصحاب أبي حنيفة[53]، تولى القضاء بعد وفاة القاضي عبدالله بن عمر بن غانم (ت 190هـ/805م)[54] واستمر بمنصبه هذا فترة

(50) المالكي، رياض النفوس، ج263/1؛ وينظر القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2980299/3.

(51) ابن خلدون، المقدمة، ص220-221.

(52) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج304/3؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج97/1؛ وعند الدباغ، معالم، ج19/2 ان ذلك كان سنة 204هـ.

(53) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج306/3-308؛ الدباغ، معالم، ج29/2و30.

(54) أبو العرب، طبقات، صص116-117؛ المالكي، رياض النفوس، ج215/1؛ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب،ص175، عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج6/2.

طويلة لحين مشاركة ابن الفرات له، وكانت هذه المشاركة حدثا جديدا في تاريخ القضاء في العالم الإسلامي.

ومن الطبيعي ان تنشأ مشادة ومخاصمة بين الرجلين ولكنها لا تتجاوز حدودها على الرغم مما كان عليه ابن الفرات من العلم والفقه ونظيره ابن محرز من الرأي والصواب[55].

وللفقهاء في أمر شراكه القضاء آراء مختلفة فقد ورد عن بعضهم في تفسير ذلك (ان كلا منهما يقضي في موضعه من أراد أسداً من المتداعين حكم عنده ومن أراد أبا محرز حكم عنده)[56].

وبهذا القول قال المازري، ومنع بعضهم الولاية على هذا النحو لأنه يقود في كثير من الأحيان إلى التشاجر بين أهل البلد فيطلب أحد الخصمين قاضيا ويطلب الآخر قاضيا آخر، كما منع البعض تولي اكثر من قاضي بالنسبة إلى كل قضية[57].

وهكذا جلس ابن الفرات للقضاء، وكان يواجه الأمير زيادة الله بتحريم الخمر، ويقف ضد مقالة المعتزلة بخلق القرآن[58].

كما كان لأسد ولأبي محرز بوصفهما قاضيين دورهما في الوساطة بين الثائر منصور الطنبذي الذي استحوذ بثورته على مناطق قريبة من القيروان وأجزاء من البلاد وحاصر زيادة الله في القصر القديم نحواً من اثنتي عشرة سنة

(55) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج304/3.

(56) الدباغ، معالم الإيمان، ج19/2.

(57) الدباغ، معالم الإيمان، ج19/2.

(58) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج305/3؛ ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، ج106/1.

ونزل بعسكره بين شرقي القيروان وغربها وخندق هنالك فخرج إليه أسد وابن محرز واجتمعا بهِ وعنده وجوه الأجناد وغيرهم، فدار بينهما حديث إلى ان طلب منصور من القاضيين الخروج من مجلسه وذكرها بظلم زيادة الله للمسلمين قال الدباغ: (فأما أبو محرز فتكلم لأنه خاف من منصور ومن أصحابه فقال نعم وظلم اليهود والنصارى، واما أسد فقال كنتم أعوانا له قبل هذا الوقت وانتم وهو على مثل هذا الحال وكما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فكذلك يسعنا الوقوف عنه وحده)[59] فتح جزيرة صقلية وتولية أسد بن الفرات القيادة:

كانت صقلية بعد فتح العرب بلاد المغرب مقرا للأسطول البيزنطي ينطلق منها عند الضرورة لتهديد سواحل ومدن المغرب العربي، كما كانت ملاذا لأعداء العرب من الروم وغيرهم ممن يلجأون إليها لأسباب كثيرة ومن هنا كان باعث الحملات التي وجهت إلى صقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط[60].

وفي زمن الأغالبة قام البيزنطيون بعدة غارات على الساحل التونسي أيام الأمير إبراهيم بن الأغلب إلى ان اتفق الأغالبة مع البطريق جزيجوري سنة 197هـ/ 819م على عقد معاهدة عدم اعتداء لمدة عشر سنوات تم خلالها تبادل الأسرى وتامين سلامة التجار من كلا الطرفين.

والواضح ان هذه المعاهدة المبرمة بين الطرفين كانت تقضي بإعادة الأسرى المسلمين لدى صقلية من الجند أو غيرها، ومن هنا بدأ الجدل في جدوى المعاهدة ونفاذها بعد ان وصل القائد البيزنطي فيمي في أواخر سنة (2هـ أو أوائل سنة

(59) معالم الإيمان، ج20/2و21

(60) سالم، المغرب الكبير، ج385/2.

212هـ. وكان القائد المذكور من الخارجين على الإمبراطور البيزنطي مع أنصار آخرين له واتصل بالأمير الأغلبي زيادة الله وطلب منه العون لاستعادة الجزيرة من منافسية وأكد له ان حاكم صقلية ما زال يحتجز أعدادا من أسرى المسلمين لديه وبذلك فقد خرق الهدنة بين الطرفين[61].

ولم يكن أمام الأمير زيادة الله إلا أن يجمع مستشاريه وعلماء البلاد يسمع رأيهم في هذا الأمر، وكان على رأسهم هؤلاء قاضيا أفريقية أبو محرز وأسد بن الفرات، فكان رأي أبي محرز عدم الأخذ برأي وقول فيمي وأنصاره وطلب التريث حتى تظهر البينة[62].

أما أسد بن الفرات فقد اعترض على تشكيك أبي محرز في شهادة القائد فيمي وأنصاره وَعَدَّهُم رسل ملك الروم، وقال: (بالرسل هادناهم وبهم نجعلهم ناقصين)[63] واستشهد بالآية الكريمة (فلا تهنوا وتدعو إلى السلم وانتم الأعلون)[64] وأكد إلى ما تدعو إليه الآية (فنحن الأعلون)[65].

ويتضح من المناقشات بين علماء أفريقية ان هناك خلافا في شان فتح صقلية فالبعض منهم كره ذلك على أساس انه لم يصح عندهم أن حكام صقلية قد نقضوا العهد، وقال آخرون منهم نغزوها ولا نسكنها ولا نتخذها وطنا، أما سحنون بن

(61) المالكي، رياض النفوس، ج1/186، عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2/211.

(62) المالكي، رياض النفوس، ج1/186؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3/305؛ الدباغ، معالم، ج2/21؛ عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2/212.

(63) المالكي، رياض النفوس، ج1/186؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، ج2/280-281.

(64) سورة محمد، آية 35.

(65) المالكي، رياض النفوس، ج1/187؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3/304؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج3/21؛ عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2/212.

سعيد فقد سأل عن المسافة بين جزيرة صقلية وبلاد الروم وعن المسافة بينهما وبين أفريقية وعندما علم أن الإنسان يتمكن من طرق الجزيرة من بلاد الروم مرتين أو ثلاث مرات في النهار، وذلك من خلال عبور مجاز مسيني الضيق، وان المسافة بين جزيرة صقلية وبين أفريقية يوم وليلة، اظهر سحنون عدم موافقته على فتحها لسهولة طرقها من قبل قوات الروم مع بعدها عن قواعد العرب حتى أنه قال: (لو كنت طائرا ما طرت إليها)[66].

على أية حال فقد غلبت فتوى أسد بن الفرات كل الأقوال والاعتراضات ونقضت الهدنة بين الطرفين وبناء على ذلك قرر زيادة الله تجهيز الحملة لفتح صقلية[67].

ويلخص عبدالعزيز سالم الأسباب التي كانت وراء فتح الأغالبة لصقيلية بما يأتي:

1. الجهاد في سبيل الله، وفي قول أسد بن الفرات المذكور آنفاً ما يؤكد ذلك.
2. القضاء على غارات الروم البيزنطيين التي كانت تنطلق من هذه الجزيرة.
3. تعد جزيرة صقلية من البلاد الفتية التي يمكن استغلالها بعد فتحها.
4. حاول زيادة الله أشغال قواته بفتح صقلية تجنبا للكثير من المشاكل التي قد بدأت تثار ضده من قبلهم.

فضلا عن عون القائد فيمي وأنصاره وتهوين أمر الجزيرة وقواتها[68].

(66) النويري، نهاية الارب (اماري، المكتبة الصقلية، ص427-428؛ عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج214/2.

(67) عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج212/2.

وأقر زيادة الله على قيادة الحملة أسد بن الفرات، وكان خروجه إلى صقلية من مرسى سوسة يوم السبت النصف من شهر ربيع الأول سنة 212هـ/14حزيران 827م في جيش قوامه عشرة آلاف رجل منهم سبعمائة فارس، حملتهم مائة سفينة[69]، وخرج لتوديعه الكثير من العلماء والوجوه ورجال الدولة وعامة الناس، وقد أمر زيادة الله ان لا يبقي أحد من رجاله إلا شيعه، (وقد صهلت الخيل وضربت الطبول، وخفقت البنود) فقد هاله ما رأى وأثاره، فوقف في الناس، وألقى هذه الكلمات:(لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، والله يا معاشر الناس ما ولي لي أب ولا جد، ولا رأي أحد من سلفي مثل هذا، ولا بلغت ما ترون إلا بالأقلام، فاجهدوا أنفسكم فيها وثابروا على تدوين العلم، تنالوا به الدنيا والآخرة)[70] فكانت تلك الوقفة خير مناسبة للقاضي والقائد للحث على طلب العلم، والجهاد في سبيل الله[71].

سار ابن الفرات على رأس جيشه إلى هدفه صقلية حيث رست سفنه في ميناء مازر بعد ثلاثة أيام من إبحارها صباح يوم الثلاثاء 13 من ربيع الأول

(68) المغرب الكبير، ج2/386 و 387.

(69) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج2/281؛ الحموي، معجم، ج3/417؛ اماري، المكتبة الصقلية، ص428؛ ويشير القاضي عياض،بقوله: (خرج أسد في عشرة آلاف رجل منهم تسعمائة فارس) ترتيب المدارك، ج3/304.

(70) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3/305-306؛ اماري، المكتبة الصقلية، ص184.

(71) عبدالحميد، تاريخ المغرب الكبير، ج2/217.

(17 حزيران سنة 827م)[72] ويعزو عبدالحميد السبب الذي جعل الأسطول ينزل في مازر إلى ميزتين تتمتع بهما هذه المدينة:

أحدهما(ان ساحلها يعدّ اقرب السواحل الصقلية إلى الأرض الأفريقية.

وثانيهما: انها كانت بعيدة عن مركز الثقل البيزنطي في الجزيرة وذلك على الساحل الشرقي حيث سرقوسة وقطانيا وطبرمين، كما ان مدينة مازر نفسها كانت بعيدة في الداخل على بعد أميال من الساحل)[73] واصل أسد زحفه على رأس جيشه إلى شرق الجزيرة لملاقاة الروم والقضاء عليهم، وكانوا تحت إمرة صاحب صقلية بلاطه، ودار القتال بين الطرفين في موضع بين بلرم ومازر، سمي باسم بلاطه فيما بعد، وكان جيش الصقليين مئة وخمسين ألفا ففاق المسلمين عَدَداً وعُدَداً[74].

وكان ابن الفرات في هذه المعركة يحمل اللواء في يده والسيف بيد أخرى ويقرأ سورة (يس) ويدعو الله فحمل وحَمل الناس معه على عدوهم فهزم بلاطه وجرح في هذه المعركة، واستولى المسلمون على عدة قلاع وحصون من الجزيرة[75].

(72) الحميري، الروض العطار، ص366؛ وينظر الحموي، معجم، ج417/3؛ عبدالوهاب، ورقات، ق440/3؛ عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج218/2؛ السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ص227.

(73) تاريخ المغرب العربي، ج218/2.

(74) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج306/3، اماري، المكتبة الصقلية، ص184 و222؛ ابن أبي الدينار، المؤنس، ص49؛ مورنيسو، المسلمون في صقلية، ص9.

(75) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج306/3؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج24/2.

وبعد انتصار المسلمين في هذه المعركة التي تمت في ربيع الثاني 212هـ/15 تموز 827م وفرار أعداد كبيرة من فلول الروم. وحصول المسلمين على غنائم كثيرة كتب الأمير الأغلبي زيادة الله إلى الخليفة المأمون يزف له بشرى النصر، وفتح

الجزيرة على يد قائد المسلمين أسد بن الفرات(76).

وهكذا عاد ابن الفرات إلى مدينة مازر لإعادة تنظيم قواته، وترك أبو زكي الكناني أحد قواده فيها، واتجه أسد إلى العاصمة سرقوسة حيث رابطت قواته تحت أسوارها في حين حشد الروم جموعهم حول المدينة(77).

وحاصر أسد مدينة سرقوسة برا وبحرا في ما كانت الإمدادات تصله من المغرب والأندلس(78)، وفي ذلك الحين تلقى الروم المحاصرون تعزيزات بعث بها الإمبراطور ميخائيل الثاني من القسطنطينية لنجدة الجزيرة، فاشتدت مقاومة الروم للمسلمين(79)، ودارت معارك طاحنة بين الطرفين في البر والبحر سنة 213هـ/828م مما أدى إلى استشهاد العديد من المسلمين.

---

(76) المالكي، رياض النفوس، ج255/1؛ عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ج220/2؛ السامرائي، وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ص277.

(77) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج325/6؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج102/1و103؛ الحميري، الروض العطار، ص366.

(78) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج325/6.

(79) اماري، المكتبة الصقلية، ص439.

ولكن أسد استمر في قتاله على الرغم من إصابته وجراحه حتى توفي وهو يحاصر سرقوسة في ربيع الآخر سنة 213هـ/828م. ودفن بذلك الموضع[80].

Abstract

Asad Ibn Furat

Dr. Lumya Ezzdeen Mustafa(*)

Asad Ibn Furat is considered as one of the prominent scholars in 2nd Hijri century. He travelled and met the majority of Moslim clerics of his time in Egypt, Hija2 and Iraq. He became a real pioneer of the two prominent sects (Maliki and Hanafi) and spread them in Morocco. He had contributed greatly to the seientific movement in Morocco besides being a distinguised army leader who took the responsibility at invading sicily.

(80) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج1/381؛ الدباغ، معالم، ج2/25؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9/6؛ سيركين، تاريخ التراث العربي، م1/ج3/146.

واما القاضي عياض فيشير إلى وفاة ابن الفرات بقوله: (كانت وفاة أسد في حصار سرقوسة .... وهو أمير الجيش وقاضية سنة 213هـ وقيل 214 وقيل 217هـ). ترتيب المدارك، ج3/309.

(*) Assiatant Prot - College of Arts - History – University of Mosul.